في الموقف الفكري للفنان العراقي

حسين جليل

١

عندما نتحدث عن الفنان المعاصر ... انما نتحدث عن ذلك الفنان الذي يلتقي ، معنا عبر مواجهات تختلف سلبا وايجابا ، بقضايا عصرنا الاساسية ، من خلال موقع متميز ... يتبلور ، جراءة ، بالضرورة ، موقف فكري يحمل سمة من سمات عصرنا ... في حضورة وفي تناقضه ، وفي لا نهائية حركته .

معنى ذلك ، ان الفنان المعاصر ... الذي نتعرض له ،من خلال بحثنا عن الموقف الفكري ،انما هو ... ذلك الفنان الذي منحته الحياة ، واختار له التأريخ ... صفتين جوهريتين :

اولا : صفة وعي عصرنا وعيا يتواجد ، معه ، تبصر ينفذ الى حقائق الوجود الانساني ، عبر الزمان والمكان ، لاكتشاف العلاقات المتشابكة في كثافة حضور ذلك الوجود ، كما يتواجد ، معـــه ، استلهام للقوانين المحركة للانسان وللكون ، في مشاركة للعلم في رؤاه برؤى لا حدود لها في رحلة البحث عن الحقائق التي لما تزل مجهولة تحلم بها الارقام كما تحلم الكلمات والالوان ٠

ثانيا : صفة القدرة على الفعل في عصرنا ، تلك القدرة الفريدة التي تكون ، المعاناة والتجربة الفنية والموهبة المرهفة الحس ، بالاضافة الى الوعي لجوهر الثقافة الانسانية ٠٠ في معايشة حميمة للحقائق العلميـة المعاصرة ، من اسباب بروزها ، ضمن عمل جمالي له دلالـة فـكرية ، ويحمل بالاضافة الى سمات عصرنا ، القدرة على الفعل فينا ، وفي عصرنا فعلا يكسب طاقة الامتداد الى عصور اخرى ، سواء كان ذلك بتحريـك وجداننا باتجاه تغيير شكل من اشكال حياتنا ، او بمنحنا المبادرة لكسر زجاج ذاتنا المحدودة للخروج منها الى ذات العالم ٠٠٠ وبذلك يهبنـا الرغبة في تصور نموذج جميل وجديد لحياتنا ٠ اي ان يمنحنا طاقـة تجاوز الواقع وتخطيه الى المستقبل من خلال كشف ورفض الواقـع ، وليس من خلال تجاهله ٠ وبذلك يفعل فينا « وعي الفنان » فكرا وخيـالا منيرا اعماقنا ومنقيا ضمائرنا ومحفزا بصائرنا لاستقبال « نموذجه » ٠ حينئذ يصير حتى مجرد حلم الفنان وخياله وعشقه جزءا من ثورة عصرنا٠ ونستطيع ان نكشف ذلك في :

– وعي العصر ٠

الفعل في العصر ٠

ذلك هو الفنان الذي يتعرض ، بالضرورة ، ودون سواه اي مسألة، هي من اخطر واعقد مسائل عصرنا انها مسألة الموقف الفكري بما في ذلك مسألة الالتزام في شكله ومداه ٠

اما الانماط الاخرى من « ممتهني » الفنون او « معلميها ! » ٠٠ ، الذين تنحسر ، عنهم صفة وعي العصر ، ويفتقدون القدرة على الفعـل فينا وفي حياتنا المعاصرة ٠٠ من خلال عمل فني له جدواه النابعة من ثورة الانسان ، فلا علاقة لنا بهم الا بالقدر الذي نجدهم فيـه وقـد القوا بانفسهم في طريقنا !

ان علاقتنا ستكون مع الفنان الذي نسمع ، من خلال لوحاته وتماثيله وكلمات رسائله ما سمعناه من «غوغان» ٠٠ حين كتب الى زوجته :

«ان الفن صناعتي ورأس مالي ومستقبل اولادي وشرف الاسم الذي اعطيه لهم ٠ »(١) ٠

لعل الفنون التشكيلية ـ وبشكل خاص الرسم والنحت ـ من اكثر الفنون تماسا بملامح حياة الانسان ، ومن اشدها تأثرا بالطبيعة والتراث. لذا فان اصالة وروعة تلك الفنون تتأكد من خلال انتمائها الكامل للبلد الذي تنبع من ارضه وتأريخه وفكره واساطيره ، وتنبض من بين وجوه ابنائه واشجاره وتتحرك ضمن حركة الحياة فيه .

ان الخط والتركيب واللون والكتلة لا يمكن ان تعبر عن شيء ما ، دون ان تتواجد مجتمعة ومتناغمة .. ضمن مخاض خاص ، مخاض قومي وذاتي، مخاض يكسبها طاقة التفاعل والفعل ، كما يكسبها صفة (الاصالة) ويمنحها الجذور التي تمتد امتدادا انسانيا عميقا .

معنى ذلك ان [ادوات التنفيذ] لدى الفنان التشكيلي ، على اهميتها ، ومهما بلغت من تعقيد وغرابة ودقة ، لا يمكنها ان تكون ، بحد ذاتها ، المبرر الحاسم لابداع فن اصيل وفاعل .

من هنا ، تبرز الاهمية القصوى ، وتتشكل السمات .. للموقف الفكري للفنان .

ـ هل الفنان مجرد مازج الوان وطارحها على لوحة فارغة لتتحول من لونها الابيض الى اللون الاحمر والازرق والاخضر ؟

ـ هل الفنان مجرد مزخرف جدران ؟

ـ هل الفنان مجرد صانع كتل من الصخر او البرونز ؟

ـ هل الفنان مجرد مهندس واجهات ومصمم تراكيب معمارية خاضعة لحساب القياسات الرياضية ؟

ـ ام الفنان شيء آخر ؟ شيء يمتلك مهارات متعددة يشارك فيها « الملون » ، و « المزخرف » و « صانع الكتل » و « المهندس المعماري » وغيرهم ، بالاضافة الى كونه ، كغيره من مفكري العصر ، يمتلك ،ليس في كفيه وعينيه فحسب ، بل وفي ضميره ووجدانه ... سمة عصرنا وجدواه ... وبذلك يتمايز عن غيره من « منتجي السلع » الجميلة والمفيدة في سد حاجة بشرية عابرة . وبذلك ، تتأكد لنا حقيقة ان قيمة ايما لوحة او تمثال او قطعة فنية لا تكمن في مادتها ولا في مجردعملها أو صنع اجزائها ، وانما تكمن في ما تحمله تلك القطعة من فكر ... هو جوهر ما فيها من جمال وروعة .

معنى ذلك ان العمل الفني ، في الاساس ، عمل يستمد جدواه وقيمته ليس في سوق الفن وانما في تأريخ الفن ! ـ مما فيه من فكر «تموضع» و «تشكل» من خلال الوعي والمعاناة والتوهج المبدع ليصير لوحة او تمثالا ليصير شيئا يظل جديدا وحقيقيا يفعل فينا وفي غيرنا ، ليصير « علامة » نوعية لوعي انساني وصل على يد

فنان معين ، وبشكل استثنائي ، درجة التحول ، درجةالتجسد الخالد والرائع لجوهر افكار العصر .

ومعنى ذلك ، ايضا ، ان قناعتنا – ومن ثم اعجابنا واندهاشنا وحماسنا – بايما فنان معاصر لا تنبع الا من قناعتنا بشيء من موقفه الفكري .

فكما ان الاصالة والابداع ، في الشكل والمضمون ، هما المبرر الذي يقنعنا في ان نعتبر عملا فنيا ، فان الدلالة الفكرية لذلك العمل هي التي تستلزمها قناعتنا بجدوى ذلك العمل وضرورته فنفتح قلوبنا لاحتوائه كأعز واجمل واغنى عطاء لعصرنا .

: ● :

اذا كان الفنان المعاصر هو احد مفكري العصر ، احد « مهندسي فكر » العصر ، فان ذلك لا يفقده ابما صفة من صفاته الاساسية كمبدع فن اولا كما لا يفقده قدرته واسلوبه في تفرده وفي ممارسته لفرز افكاره من خلال عمله الفني ولا يضعه في مكان غير مكانه ، وانما يؤكد مشاركته لمفكري عصره «همومهم العظيمة» دون ان يغير ذلك من ان يتجاوز ويردد ، يرفض ويتمرد ، يعشق ويثور في خطوطه والوانه وكتله واشكاله وفي نماذجه التي «يخلقها» او «يمزقها» بين لحظة واخرى عند التقائه المتمايز بالعالم وبالكون .

معنى ذلك ان الفنان المعاصر يظل فنانا في ممارسته لموقفه الفكري ومن الخطأ تصوره فيلسوفا او سياسيا محترفا او عالم رياضيات ! لان ذلك التصور يخرجه عن طبيعته الحقيقية .. كفنان له موقعه الضروري والخاص على خارطة عصرنا ، وله لغة خاصة يتخاطب بها مع العالم وسلاحا خاصا يقاتل به الشر واداة خاصة ونادرة يسهم بها في تغيير الواقع .

ان رؤى الفنان المعاصر ، رؤاه التي تتجاوز الماضي وتمزق قشرته . وترفض الحاضر وتهدم زيفه ، وتعانق المستقبل وتستبق اوان ميلاده ، هي التي تحمل نار ثورة الفنان المعاصر الى بناء عصره والى الاجيال عبر الزمان والمكان .

ان رؤى الفنان المعاصر هي نهره العظيم الذي لا يقف جريانه ولاتنضب منابعه ابدا .. انها نهره الذي لا ينسكب على سطح العالم ، وانما في مجرى اسطوري له الف اتجاه في مجرى الاعماق السرية وبين الذرات البالغة النعومة والكامنة الطاقة بين الكريات المجهولة التي لا تراها العين الا عندما تنشق بها الصخرة عن فيروز جديد .

●

ان الفنان عندما يتواجد لمساره ، من خلال لقائه وتصادمه بالعالم ،

موقف فكري معين ، فانه لا يصدق ذلك الموقف ولا يتسم بالثبات والعمق خارج وجهه الحقيقي كفنان خارج ابداعه . لان الموقف الفكري للفنان ..هو موقف تتحدد ملامحه في داخل الفنان لا من خارجه .. في عمله الفني لا بعيدا عنه ، وبذلك يصبح الموقف الفكري محتوى اصيلا ... لا قناعا لاخفاء الزيف والسقوط ونضوب الرؤيا ... ولا « جواز مرور » للسفر بين الولاءات المتعددة ـ ولا « اكسير حياة » لاعادة الشباب الى الروح الهرمة .

لذا ، فالموقف الفكرى ، لا يمكن ان يكون ، بحد ذاته ، المبرر الوحيد لا سيما عبقرية معاصرة في الفن ... ولكنه يظل جذرا عظيما من جذورها .

ان « الفن الجديد لا يخرج من النظريات ... بل من الاعمال الفنية ذاتها »(٢) .

ان « غوغان ... الفنان الذي ثار على قبح المدينة الحديثة وخداعها .. فهاجر الى بحار الجنوب .. حيث الدفء والالوان ... الصادقة النقية، وحيث البراءة والطهر »(٣) أستبق بحدسة الزمن ، وتحسس بوعيه ماسوف تكون عليه حالنا ، وتوقع التحول الاشد عنفا واثما للبرجوازية حين قال:

«ان عصرنا بشعا في اوربا .. ينتظر الجيل المقبل .. عصرا يحكمه الذي ... كل شيء فيه متعفن سواء في ذلك الرجال او الفن ... حتى لقد أصبح الانسان يعيش في تشتت مستمر ...»(٤) .**وقول «غوغان» هذا ،** يذكرنا بوصف كارل ماركس للانسان ، لحاله ، في ظل الاستغلال الرأسمالي المنظم ، عندما يصبح العامل جزءا من وسائل الانتاج اذ يقول :

« ... ان الانسان يتحول ذيلا من لحم لماكنة من صلب !»(٥) .

لذا ، فالفنان المعاصر ...، يجد نفسه ، بالضرورة ، امام حالتين :

اما ان يرضى لنفسه ـ كانسان يعيش محنة الرأسمالية وكفنان يتحسس اكثر من سواه ثم سحقها للجمال الحقيقي للحياة ـ ان يتحول الى «**ذيل !**» لتلك الماكنة الرهيبة ،

واما ان يرفض ذلك فيتمرد ويكفر بالقيم التي تحاول الرأسمالية، بهذا الشكل او ذاك ، ان تحنطه بها وتحوله الى « قن » من اقنان عبوديتها .

فاذا اختار الفنان حريته واحتفظ بحقه في رفض ايما عبودية وظلم ، حينذاك لابد له من « دليل » لا بد له من « نجم » يهديه ، لابد له من موقف فكري لابد له من «نظرية» يطمئن اليها ويستلهم نهجها ، في رفضه المتمرد وفي انطلاقه بعيدا .

ولما كان عصرنا عصر صراع ايديولوجي بقدر ما هو عصر صراع طبقي ،

فلا يمكن لفنان حقيقي ، ان يتشبث بعزلة ايديولوجية لا يمكن ان يحايد ، فكريا ، أو ان ينفصل عن العالم فهو مع هذا الطرف او ذاك ، بشكل من الاشكال ، يدري بذلك ام لا !

ان النار الحقيقية لشعلة الفن في عصرنا هي تلك التي تنبعث وتتأجج وتحرق وتضيء من خلال الصراع بين عصرنا (بانسانة وعلمه وفنه وادبه وفكره ومآثره) من جهة ، وبين الامبريالية وحلفائها من جهة اخرى • والفنان الذي يعي عصره بعمق وشمول • وله القدرة على الفعل فيه لا يستطيع ، ولو للحظة واحدة ، ان يعيش حيادا كاذبا وخياليا ، حيادا هو في جوهره غياب عن العصر • ان الفنان الفاعل والواعي سرعان ما يكتشف موقعه بحس اخلاصه للانسان ولقضيته الفن ، سرعان ما يجد نفسه منحازا الى الجانب الذي يقاتل فيه الانسان لكي لا يصبح ذيلا !

وبذلك ، فان ايديولوجية الثورة المعاصرة ••• الثورة التي يلهب نارها الصراع الطبقي والتي في انتصارها نهاية ابدية لذلك الصراع ، اديولوجية الانسان المعاصر في ثورته لتغيير عالم الاستغلال الطبقي بعالم اشتراكي ، ينعدم فيه التشويه القسري لجمال الحياة ، وترفرف على افاقه رايات الحرية والاخاء الانساني •• ان تلك الايديولوجية هي ايديولوجية الفنان في عصرنا ••• وهي دليلة ونجمه وسلاحه سواء ادرك ذلك الفنان بانتمائه المباشر او ادركه بحسه الشمولي كفنان يعيش حياة عصرنا ويتنفس هواءه ويعاصر ثورته ويشهد « دراما » النار والدم والدموع والموت التي لم ينسدل عليها ستار النهاية » !

●

ولان الفنان انسان له سمات خاصة ، فان علاقته بايديولوجية الثورة في عصرنا علاقة خاصة ، كما ان اسلوب تعامله مع تلك الايديولوجية اسلوب خاص ايضا •

ان علاقة الفنان بايديولوجية الثورة المعاصرة ••• تتحقق من خلال التزامه التزاما حرا وشموليا ، من خلال احتوائه ـ هو ـ لفكر الثورة ، لروحها ، لطابعها لسمات جماهيرها ، لهمومها ، لنكهة مستقبلها ، وليس من خلال احتواء الايديولوجية له احتواء يجعل ، منه ، جزءا تابعا ومنقادا لها •

ان «**فكر الثورة**» بالنسبة لفنان عصرنا ، جناح يحلق به في آفاق المستقبل ، انه جبل الحرية • يتسلقه بحبه واختياره ••• ليستشرف من ذراه عظمة الانسان في استشهاده ، وفي انتصاره ، وليس « منفى » يبعده ويحجب ، عنه ، العالم •• فيضطر ، وبدافع الاخلاص في المشاركة ، الى ان ينظر الى الوجود بعين واحدة •

ان الفنان في عصرنا ، كما رفض أن يتحول الى « ذيل لماكنة الصلب !»

فانه يرفض ان يصير « ذيلا » لايما ماكنة اخرى !

فالحرية بالنسبة للفان هي جوهر علاقته بعصره ، لذا فان علاقتـــه بايديولوجية الثورة ·· تمتد عبر حريته وتتسرب من عروقها ، خـــلال حركته في تجاوزه للزمان والمكان · فهو ، مع ايمانه بثورة عصره وبضرورة مشاركته فيها ، لا ينشد الى واقع عصره ، وانما ينطلق ، منه ، مستلهما المستقبل ، فيمحاولة الا انتهاء لها ، لصنع مالم يصنع منه ، وبذلك فهـو يتجاوز اللحظة التي يعيشها الى اللحظة التي ينتظرها ، ذلك « لان كل فن هو وليد عصره وهو يمثل الانسانية بقدر ما يتلاءم مع الافكار السائدة في وضع تاريخي محدد ومع مطامح هذا الوضع ومع حاجاته وآماله ، ولكن الفـــن يمضي الى أبعد من هذا المدى ، فهو يجعل ، كذلك ، من اللحظة التاريخية المحدودة لحظة من لحظات الانسانية ··· لحظة تفتح الامل نحـــو تطور افضل »(٦) ·

اما اسلوب الفنان ، الذي يتحقق ، من خلاله ، التزامه الايديولوجي في موقفه الفكري من قضايا عصرنا ·· فانه اسلوب شمولي يرفض «النصية» وعبادة « الاصنام » ، كما يرفض « وثنية » الافكار الجاهزة والمسبقة ··· التي تريد ان تجعل ، من فنه ، واقعا ماثلا لا مستقبلا ·

معنى ذلك ، ان الفنان يقف من « المسلمات » الايديولوجية موقفـــا جدليا ·· يعتمد النظرة الديالكتيكية ، في قبوله وفي تناقضه مع ايما قرارات ملزمـــة لغيره ·

ولكن تناقض الفنان المعاصر ، يظل تناقضا مشروعا وضروريا ، ودليلا على الحيوية وغنى الابداع وطاقة التجاوز والاستلهام · ما دامت دائرتـــه، مهما اتسعت ، فانها لا تتسع تشمل الاختلاف الجذري مع الانســـان وروح العصر ، كما لا تتسع لتشمل عموم ثقافة العصر ، بما فيها من جوهر انساني وفكر معاد لثورة الانسان ، ذلك لان فنان عصرنا ··· الذي عاش كوارث والام الحروب ···، كما شاهد الرعب الذي يعتصر قلب البشريـــة مما تعده الامبريالية من اسلحة دمار وموت ·· وما تمارسه من قسوة وعنف وحشي لسحق الجماهير وتمزيقها واذلالها ونهبها وسلبها حريتها وامنها ، لم يعد بمستطاعه ، مهما منح نفسه من حرية في الرفض والتناقض ، ان يظل بلا موقف محدد ، مجرد « متفرج » لما يدور على مسرح الحياة من هنا كان رفض الفنان المعاصر ، الفنان الحقيقي ، لايما ايديولوجية ، لايما ثقافـــة تعمل على تخدير الانسان وعلى تضليله والهائه عن المجزرة التي يعانيهـــا او التي تعد الامبريالية العدة لها ، ايما فن او ادب او فكر ، يحـــاول افراغ سخط الانسان وغضبه من محتواهما الثوري ··· بافراغهما مـــن الايمان بحتمية انتصار الثورة تاريخيا ، انماط من افكار ونظريات تشـــل

عزم الانسان وتعزله عن معركة العصر (عبث ، لا معقول ، عدميـــة ، هروب ، غربة ، حلم ، ميتفيزيقي ، لا جدوى ، لا تاريخ ، لا أهداف) كما تمزق وحدة الجماهير المظلومة في نضالها بتكريس « الحـل الفـردي » واسقاط «الحل الاجتماعي» لازمة العصر ، وباشاعة العنصرية والشوفينية وغيرها بين الشعب الواحد ، والطبقة الواحدة ، وبزرع الخلاف اللاانساني بين الشعوب . ان فنان عصرنا الذي رفض « الفاشية » بحزم وسجـل اروع الصفحات في النضال ضد الهتلرية ، مطالب ، اليوم ، ان يكون اكثر حزما في رفض اي شكل جديد للفاشية والحكم العنصري ، كالصهيونية والتميز العنصري وجميع اشكال الظلم بسبب اللون او العرق او المعتقد .

ولكن التزام فنان عصرنا باهداف الانسان وايمانه بايديولوجية الثورة .. يظلان متميزين تماما .. فنكران الذات التي هي سمة من اروع سمات ثوار عصرنا ـ نموذج جيفارا العظيم ـ لا يتحقق لدى فنـان زماننـا في انقيـاده للشـعارات انقيادا عموميا . . . .. انقيادا سكونيا وانما يتحقق من خلال تأكيده لذاته باعتبارها ذاتا شمولية ..لاذاتا فردية مغلقة على هموم انسانية لا يشاركه فيها عصره ... وانما متفتحة عـلى هموم انسانية وعلى حلم مستقبلي .

ان تفسير الفن بالاستناد الى قياسات ايديولوجية معينة وبشكـل عمومي ، وذلك «بارجاع الاثر الفني الى عناصره الايديولوجية ...»(٧) ينزل بالعمل الفني الى مستوى اي عمل آخر يقوم به انسان ما ... الى عمل لا يتصف بالوعي والفعل والخلود ، كما ان ذلك «ليس نسيانا لخصوصيته، بل هو ايضا عدم ادراك لاستقلاله النسبي ولكون المجتمـع والفن غيـر متساويين فى تطورهما »(٨) .

لذا ، فالفنان ، نفسه ، هو الذي يكتشف ، باخلاصه لفن الثـورة، مضامين الثورة ، ويحولها ، باسلوبه الخاص ، الى حركة ابداع يتمخض ، عنها ، اثر فني ، وبذلك فهو مكتشف مضامين لا منفذ « شعارات » .

فالفن الذي هو «تلك الصورة الشاملة للعالم وللذات»(٩) والذي .. «بسمته التنبوئية يعبر عما هو جوهري في الانسانية»(١٠) **والواقعيـة** في الفن التي « ... هي الوعي بالمشاركة في خلق وتجديد الانسان لنفسـه باستمرار ... باعتبار ان هذا الوعي ارقى اشكال الحرية»(١١) .. وان كل فن اصيل ،اينما كا ن وكيفما كان ومتى كان ، انما ... « يعبر عـن شكل للوجود الانساني في العالم»(١٢) ... وفنان عصرنا الذي لم يعـد « مكلفا فقط بتقديم تقرير عن نتيجة المعركة بل هو واحد من المناضلين ، له نصيبه من المبادرة التاريخية ومن المسؤولية ، وهو مطالب ـ ايضا ـ كأي انسان اخر ، الا بالاكتفاء بتفسير العالم ولكـن بالمشـاركة في

تغيره»(١٣) ... والفنان الذي يجيب في عمله الفني عن جميع تساؤلات حياته والتي منها «وضعه الشخصي ... وغرامياته»(١٤) والفن الذي يحتوي على ذلك « السحر الكائن في جذور الوجود الانساني والذي يولد في وقت واحد احساسا بالعجز ووعيا بالقوة ، خوفا من الطبيعة مع القدرة على السيطرة عليها»(١٥) والفن الذي «يستمد نوعا من الطاقة» الوجدانية من ظروف وجودنا نفسها عن طريق كشفه عن المغزى الوجداني للزمان والمكان»(١٦) ... وان اهم ما يفعله الفن «هو التعبير عن الاحساس ونقل الوعي»(١٧) عن طريق إبداعه لاشكال ونماذج لم نعتمد عليها ، تدهشنا برؤى .. كانت مجهولة الا على مبدعيها ... ، وبلغة لا يستطيع الا صانعوها ادراك جدوى ومعنى كل مفرده من مفرداتها عند جمعها الى بعضها ـ رغم تنافرها ـ جميعا اصيلا ومبدعا ... ، لغة سحرية ... تنبع ، عبر صمتها ، من اعماقنا وتهمس في قلوبنا بكل ما نحب ونشكو ونأمل ... دونما كلمات او حروف .. لغة تذكرنا بوصف فلاطون لشعراء الملاحم المجيدين حين قال :

« **ان الالهة تتحدث من خلال هؤلاء الناس** »!

ان كل ذلك ، لا يمكن ان يحققه فن بلا حرية وبلا محتوى ايديولوجي حي ومبدع .

ان الالتزام في الموقف الفكري للفن المعاصر ... هو في حقيقته ـ جدليا ـ « ثورة في الثورة » من اجلها لا ضدها ... مع الانسان لا عليه .

لذا ، فان منح الفن « جنسية ايديولوجية » و « جواز سفر » ايديولوجي !... لا يعني سوى افراغ الفن من طاقته الذاتية ... طاقته الانسانية ... التي لا هوية حقيقية لها سوى هوية انتسابها الى انسان عصرنا .. الى ثورة ذلك الانسان المتمرد الثائر الانهاء ملحمة الصراع الرهيب لصالح قوى المستقبل . لكن « **الستالينية** » **كانت تعتقد ـ على حد تعبير** سارتر ـ ان «الله سوفياتي الجنسية!» ... وبذلك منعت فن الواقعية الاشتراكية العظيم من الاحتكاك بعصرنا ... احتكاكا فاعلا ومؤثرا فأساءت اليه والى فن العالم .

من الخطأ الفادح ان نتجاهل ان « الابداع هو في الاصل نضال لشكل ما يزال في حالة القوة ضد شكل مقلد»(١٨) ، كما ان من الخطأ ايضا ، ان نعتبر مجرد الاخلاص « **لشخص الايديولوجية** » هو ذروة « **التوافق** » و « **الانسجام** » مع قوانين الثورة .

ان الفن المعاصر .. يرفض « التوافق والانسجام » كما يرفض التوقف عند حدود بذاتها ... انه فن الثورة المعاصرة .. المتجددة ابدا .

(٢)

واذا ما تساءلنا عن الموقف الفكري في الفن العراقي الحديث فماذا نـــرى ؟

منذ بداية الخمسينات ، اخذت في الظهور بعض ارهاصات بدأنـــا نتحسسها من خلال كتابات واعمال «جيل الرواد» تشير الى ٠

اولا : ان الفن العراقي الحديث قد بدأ مع بداية الخمسينات يكسر اطار الزخرفية والتزيينية ، ويمتد بجذوره ، عبر المضـامين الرومانســية ، الى الواقع في بلادنا ٠

ثانيا : ان الفن العراقي الحديث قد بدأ يتجاوز «التكنيك» لذاته الى التكنيك من اجل التعبير عن شيء من حياتنا ٠

ثالثا : ان الفن العراقي الحديث ٠٠٠ قد بدأ يتأثر ، بهـذا الشكل او ذاك ، بحركة الفكر العالمي ، ومن خلال ذلك ، بدأ يتأثـر ، ايضا بحركة التطور الاجتماعي في عصرنا ٠

رابعا ان الفن العراقي الحديث ٠٠ قد بدأ يتجاوز الحدود والاساليب البدائية ، وراح يعاصر ويتأثر بحركة الفن العالمي ، شكلا واسلوبا ٠

خامسا : ان الفن العراقي الحديث ٠٠ قد بدأ رحلة البحث عـــن ذاته ، عن سماته القومية ، عن جذره التاريخي الاصيل عن تراثه ، عـــن نماذج تحمل طابعا عراقيا انسانيا متميزا ٠

سادسا : ان الفن العراقي الحديث ... قد بدأ يشارك الشعب في همومه وتذمره وشوقه .. وفي نضاله وذلك بالتعبير تلميحا او عن طريق الرموز ... وبالمجابهة الملتهبة احيانا ، فكان بذلك يعبر عن فقدان الحرية ... وعن مقاسات الشعب ومحنته .. وعن تأهبه لتغيير الواقع .. وبذلك كان الفن العراقي الحديث .. يسهم ، بشكل ما ، في رفض الواقع ويحلم او يشير الى جديد تلوح بشائره في افق الوطن .

سابعا :ان الفن العراقي الحديث ...قد بدأ يتأثر بالفكر الاشتراكي العلمي من خلال تأثر بعض الفنانين بالحركات السياسية الاشتراكية في بلادنا والبلدان المجاورة ،وبذلك فقد اخذ يتأثر بالمدرسة الواقعية الاشتراكية في الفن بمضامين عراقية

ثامنا : ان الفن العراقي الحديث قد بدأ يخلق جمهور يقيم الفن لا على انه مجرد فن متعة وجمال طبيعة .. يشبع حاجات ارستقراطية .. وانما على انه فن يحتوي ، بالاضافة الى الجمال والمتعة الحسية ،على فكر ودلالة ، وبذلك بدأت المعارض الفنية لا تجتذب الفئات المترفة وانما ابناء الفقراء ايضا ... مما اكسب الفن والفنانين شعبية بين ابناء شعبنا على مختلف طبقاته الوطنية.

تاسعا : ان الفن العراقي الحديث ... قد بدأ يعمق من علاقته بالادب العراقي ... الادب المناهض للاستعمار والرجعية والصهيونية .. الادب الذي سبق الفن في حمل راية المعارضة السياسية والاجتماعية و في خوض المعارك ضد اعداء الشعب ... وبذلك بدأ الفن العراقي الحديث يلتحم بجبهة المثقفين المعادين للاستعمار والاضطهاد ... وبذلك ، ايضا بدأ يتبلور له طابع ديمقراطي تقدمي .

عاشرا : ان الفن العراقي الحديث ، تأكيدا على حيويته ، قد بدأ يتصارع من خلال التناقضات بين الفنانين في الاساليب والمدارس والولاءات والافكار .. مهيئا اسباب تجمعات فنية ذات افكار واساليب متقاربة ، ومهيئا اسباب ظهور بدايات نقد فني .

فاذا عدنا ، الى بداية الخمسينات ، لقرأنا في مجلة « الثقافة الجديدة» ـ العدد الثاني كانون الاول ١٩٥٣ ـ رأيا لاحد رواد « الموقف الفكري ، الفنان محمود صبري ، ضمن مقال يقول فيه :

«اذا اعتبرنا العمل الفني واسطة للتعبير عن عواطف واحساسات وافكار معينة ، فانه يقوم بدون شك بدور ايجابي في المجتمع»(١٩) ...ثم يتابع الفنان محمود صبري توضيح « موقفه » بروح الواقعية الاشتراكية ، فيقول :

« ان الثقافة البرجوازية التي تشيد بحرية الفرد المطلقة ـ وهي

خرافة تفضحها نوعية العلاقات الاجتماعية السائدة ـ تحاول دائما طمس الصفة الجوهرية للفن ، كونه نتاجا اجتماعيا فهي تؤكد فردية الفنان وضرورة انعزاله عن الحوادث اليومية وحتى عن الواقع الذي يعيش فيه لكي لا تتأثر مخيلته بتوافه الحياة ! ولكي يحدد نفسه بالتالي بخلق اشكال جميلة مسرة تدخل البهجة في نفوس اولئك الذين يملكون المال الكافي لتزيين جدران غرفهم الخاصة . وبقدر ما اصبح الفن بضاعة سوقية فان الفنان أصبح بحكم موقفه الاجتماعي آلة للترفيه عن الطبقة البرجوازية، الطبقة التي تملك كيس النقود ، ومصدرا للمتعة واللذة بعد دفع الثمن طبعا .»(٢٠)

ثم يرفض الفنان محمود صبرى الزيف البرجوازي للفن ، كما يرفض «حياد» الفن .. فيقول :

« واذا كان الفن قد زيف بهذا الشكل فقد اصبح من اليسير ان تنمو بذرة الاعتقاد السائد بانه فعالية محايدة ، وبان الانتاج الفني الصحيح هو ذلك الذي لا يعكس أية آراء سياسية او مذهبية ، خاصة ما كان لها مساس باحساسات وعواطف وآمال وواقع الجماهير الغفيرة العاملة . الا ان هذا التزييف لا يجرد في الحقيقة الانتاج الفني من الدعاية ، بل يكتفي بتغيير شكلها ، انه يجعلها دعاية برجوازية ، دعاية للمفاهيم والايديولوجية السائدة .»(٢١) .

ولا يكتفي الفنان محمود صبري بتأكيد « موقفه الفكري » من حيث المضمون ، وانما يتعدى ذلك الى « الاسلوب » .. الى « الشكل » ... فيقول :

« الا ان اختيار الموضوع ونوعية التفاعل الحسي معه ودرجته لا تكفي وحدها لتقرير نوعية الدعاية التي يحملها الفن ، فقد تكون معالجة الموضوع ذهنية تجريدية تفقده كل انسانية وتمسخه الى رموز تبتدعها مخيلة الفنان المنعزلة فيصبح الغازا تنفر منها الجماهير ، ويفشل في توحيد عواطفها وافكارها وارادتها ، ويتحول الى فن « لنخبة ارستقراطية » طفيلية تائهة لها الاستعداد الذهني والعاطفي لاجتراد وتشجيع كل تطرف هوائي وكل تسيب في المفاهيم الفنية التي تقر بالاهمية الموضوعية للفن» .(٢٢)

ثم يستمر الفنان محمود صبري في مقاله الذي يعلق وينقد ، به، معرض الفنانين جواد سليم وشاكر حسن ، فيرفض الاسلوب التجريدي ... رفضا مطلقا وعموميا من موقع ايديولوجي معاد للمثالية ، موءكدا بذلك وعيه والتزامه لموقف فكري يتحدد بالواقعية الاشتراكية ... بشكلها السائد آنذاك وقبل بروز التيارات الجديدة في فن الواقعية المعاصرة .

وكان ، حينذاك ، عملاق الفن العراقي الحديث ورائده يفكر ، ويعمل، ويتأمل ، ويحلم، ويتألم، ويتجاوز .... بصمت .

لقد كان جواد سليم ... يبحث عن سمات أصيلة لفن عراقي معاصر ... وكانت ، من معارضه ولوحاته وتماثيله ، تنطلق صرخة «**الوليد الجديد**» .. الوليد الذي يحمل ، على وجهه ، ملامح عراق الحضارة ، وفي قلبه ، شعر واساطير وادي الرافدين ، وفي ضميره ، فكر العالم ، وفي يديه ، سحر العصر .

لقد كان جواد سليم ... يبحر في الاعماق ... بحثا عن جوهر الفن العراقي القديم .. ذلك الفن العظيم الذي طرته قرون التخلف ...، وبعد عذاب طويل .. امسك جواد سليم بذلك الجوهر ... فكانت تماثيله وصوره عراقية اللحم والدم والعظام !... ثم أطل ، علينا وعلى العالم ، تمثاله العظيم «**السجين السياسي المجهول**» فنال اعجاب العالم لما فيه من حس بالحرية المفقودة خارج وداخل انسان عصرنا ، ولما فيه من وعي ومعاصرة وقدرة على استعمال احدث واعقد الاساليب الفنية في التكوين والتنفيذ. وجدير بنا ان نستمع الى جواد سليم نفسه ... وهو يوضح لنا دلالة تمثاله .. بايجاز وعمق :

«ليس من المحتم ان يسجن المرء في سجن حقيقي فقد يعيش الانسان حرا وهو سجين »

وقد كتب الفنان شاكر حسن ـ الذي كان له موقف فكري يختلف في امور كثيرة عن موقفه في الوقت الحاضر ـ مقالا يتحدث عن « السجين السياسي المجهول » يقول فيه :

« .... بل هو الرمز المفعم للتمرد المشلول الذي يكابده المناضل العصري ... فجواد في تعبيره سيجمل لنا مشكلة ازلية تتجسد في موضوعه عن «السجين » ولكنها طالما تجسدت خلال العصور المنصرمة . فهي التي شهرت جميع حروب الحضارات القديمة . وهي التي فجرت الحروب الصليبية وهي التي تؤجج حرب التحرير والمقاومة السلبية في مواضع شتى من سطح الارض.»(٢٣) ....

ثم يتابع قوله : »... كان بمثابة الالم الذي اثارته آلام الاخرين فالسجين السياسي لم يكن ماثلا بجسده ولا بقيده ولا بكفاحه الداخلي الخفي ولكن بكل مظاهره.»(٢٤)

ثم يصف الفنان شاكر حسن شعوره امام التمثال فيقول :

« ولاول وهلة كان التمثال يبدو امامي احاجي ورموزا مستعصية لابد من حلها . فثمة اعمدة واقواس وكرة ترتبط باربعة اسلاك من عدة

جهات . وليس ثمة اثر لانسان او اغلال . ومع ذلك فلم يكن من الضروري ان ينتصب امامي الانسان كيما افكر به . ليس من الضروري ان تجرح كيما تتألم لان الآلام الحقة هي التي يصاب بها النوع الانساني برمته وان حلت ببعض الافراد .»(٢٥)

وبذلك فقد اكد الفنان شاكر حسن من خلال تفسيره لتمثال جواد سليم قد وقف من الحياة والانسان والعصر «موقفا فكريا» واضح المعالم حينذاك ـ الى جانب حرية الانسان ... الى جانب العصر في ثورته وفي تقدمه العلمي واثر ذلك على محتوى مفهوم الحرية الذي لم يعد تأملا مجردا وانتظارا سماويا بل مشاركة واقعية وحضورا ارضيا وانسانيا .

لقد كان « السجين السياسي المجهول » يؤكد ان فناننا الراحل جواد سليم قد وقف من الحياة والانسان والعصر « موقفا فكريا » واضح المعالم ... انه مع حرية الانسان .. مع حضارة الانسان .. مع ارادة الانسان لتغيير العالم . ويؤكد ذلك ، ايضا ، جواب جواد سليم على استفتاء مجلة الاداب ١٩٥٦ حيث يقول

«ان كل انتاج فني مهم وجيد في اي مكان وزمان هو مرآة ينعكس عليها الواقع الذي يعيش فيه . اما كيف نتحسس هذا الانتاج ان كان هو انسانيا حقا وكيف يكون صادقا وقويا معبرا فان هذا يتعلق بحرية الفنان في التعبير عما يحيطه وهي حرية فكرية واقتصادية في آن واحد»(٢٦) .

وفي ذات الوقت ، نستمع الى محمود صبري ، في حديث نشر في مجلة الاداب ، كانون الثاني ١٩٥٦ ، وهو يؤكد حقيقتين :

اولا : ان ظروفا جديدة بدأت تنشأ في بلادنا ، مما أدى الى نشوء مفاهيم ومواقف وفلسفات جديدة .

ثانيا : ان تلك الظروف الجديدة قد اوجدت مع تواجدها مبررا للفنانين العراقيين للاندفاع في الاتجاهات التعبيرية والتجريدية والتكعيبية والسريالية . وبذلك، وبفعل تلك الظروف الجديدة ذاتها ... قد تطور موقف محمود صبري ذاته من رفض التجريد عموما في مقاله في «الثقافة الجديدة» ١٩٥٣ الذي اشرنا اليه والذي هاجم فيه معرض جواد سليم وشاكر حسن ـ كما هاجم فيه اسلوب تنفيذ « السجين السياسي المجهول » ـ الى موقف آخر ... موقف يبرر ـ الى حد ما ـ اندفاع الفنانين العراقيين الى الاساليب الحديثة في الفن ... ولعل ذلك كان بداية لموقفه في ١٩٧٠ الذي تشير اليه احدى رسائله الشخصية ، حيث يحاول في دراساته الاخيرة خلق «واقعية جديدة» ... »تقوم بقلب الفن التجريدي رأسا على عقب وايقافه على رجله !!»

وكأن الفنان محمود صبري ، في مقالة الاداب ١٩٥٦ ، كان يرد على

الاستاذ حافظ الدروبي ... الذي نشر رأيا في نفس المجلة وبذات التاريخ .

يقول الدروبي ـ ولا يخفى ما في قوله من تجاهل للجذور والاسباب الحقيقية لمشكلة الفن العراقي الحديث ـ:

« **الفن عندنا يعاني السيطرة الغربية في جوهره وفي مظاهره ... فالفن عندنا غربي في مجموعه**»(٢٧) **متجاهلا بذلك قلق الفنان العراقي .. ذلك القلق الذي اكده الفنان محمود صبري .. في مقاله «مشكلة الرسم العراقي المعاصر» ..**

وواضح ان الدروبي .. كان يرى « فنه » هو ... لا الفن العراقي بمجموعه . مما يؤكد الاعتقاد بان الدروبي ، كان وما يزال ، حبيس سجن اللون .. سجن الانطاعية .. يتنفس ويرى ويفكر ... يحب ويموت .. من خلال نهجها من خلال الوانها ... في ارتعاش اضوائها .. وفي ذات معالجاتها واشكالها واسلوبها ... انها قدره والسيف المصلت على عنقه !

ان حب الدروبي للعراق ... حب انطباعي أيضا ، وكل علاقته بوطنه .. هي علاقة بطبيعة ذلك الوطن ، يؤكد ذلك قوله : « .. **وقد أخطأ احد الاوربيين حين قال : ان الالوان المغبرة طابع عراقي ، فالعراق ليس مغبرا في يوم من الايام ، وهذه الوانا ، وهذه شمسنا** »(٢٨) .. وكأني ، به ، يقول : العراق في حديقة بيتي .. وفي مرسمي .. حيث لا غبار .. ولا حزن .. ولا عذاب .. ان المسألة ، كلها ، هي مسألة جمالية .. اما الحرية المفقودة في ظل حكم نوري السعيد .. واما السجون والمعتقلات التي يعيش وراء قضبانها الاف العراقيين .. وبينهم شعراء وفنانون ومفكرون .. وأما جوع العمال والفلاحين وموتهم ... واما الاكواخ والمستنقعات في الريف .. وأما الاحياء الشعبية المهملة المهانة في المدن .. واما آلاف الاطنان من الغبار الذي تذروه الرياح على عيون أطفال الفقراء .. فتلك قضية اخرى .. انها قضية لا علاقة لها بعراق حافظ الدروبي المتشبث عبثا باذيال « الانطباعية » التي انهزمت أمام قسوة وعنف وجبروت عصرنا ... عصر الامبريالية .. عصر التحول الى الاشتراكية ، لذا فعراق الدروبي بلا غبار ... وشمسه الجميلة كانت، منذ الازل ، وما تزال ، تداعب ، باضوائها النقية الزاهرة ، أمواج « دجلة الخير ..» بهدوء .. ونعومة .. ولطف .. واناقة حالمة !

ومن حقنا ، أن نتساءل :

ـ هل كان حافظ الدروبي ، في تصريحه للاداب سنة ١٩٥٦ بلا موقف فكري ؟

لم يكن الدروبي بلا موقف ٠٠ ولكن كان له موقف يختلف ، به عن مواقف زملائه الرواد ٠

ولنستمع الى صوت رائد اخر ٠٠ انه صوت الفنان اسماعيل الشيخلي الذي يؤكد لنا ، في تصريحه للاداب ١٩٥٦ على :

« ٠٠٠ **ان الحركة الفنية عندنا لا تمثل الا بلبلة واضطرابا سببهما تخلف الشخصية العراقية في التعبير عن حالتها وبيئها وأوضاعها التاريخية ـ في اعتقادنا ان الاستاذ اسماعيل الشيخلي قصد « بلبلة التعبير »** الفني ٠٠ ولم يقصد التعبير الفكري والسياسي للجماهير ٠٠ الذي كان ١٩٥٦ واضحا وقويا ولاهبا وموحدا ـ على أن العراق مقبل على تقدم كبير في حياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، ولابد ان يترك هذا التقدم طابعه التأثيري في انتاج الفنانين ، ولابد من جهة اخرى ان يستلهم الفنانون العراقيون هذه الحياة الجديدة وان يخلعوا عليها طابعهم العراقي الخاص ٠٠٠ ان العلاقة الطبيعية بين الفنان والجمهور ستؤدي بلا شك الى التأثير على نوعية الانتاج الفني وعلى ذوق الجمهور معا فيؤثر احدهما على الآخر حتى يأخذ الفن شكلا او اشكالا أصيلة معبرة عن حاجات ذلك الجمهور ومدركه من قبله في الوقت نفسه »(٢٩) ويتضح من تصريح الاستاذ الشيخلي ما يلي :

اولا : انه يعتبر المرحلة التي سبقت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ مرحلة قلق واضطراب بالنسبة للفنان العراقي ٠

ثانيا : انه يطالب الفنان ان يتبنى المضامين المستلهمة من حياة الشعب المقبل على تطور في حياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ٠٠ وبذلك يسهم الفنان في خلق فن له طابع عراقي ٠

ثالثا : انه يطالب الفنان ان يخاطب الشعب ـ الجمهور ـ باسلوب يفهمه ٠

رابعا : ان الفن العراقي ـ بحكم تاثره بالشعب المقبل على تطور نوعي في حياته ـ فهو مقبل ايضا على تطور نوعي ٠

وبذلك يؤكد الفنان اسماعيل الشيخلي ، خلافا للدروبي ، وقوفه الى جانب جواد سليم ومحمود صبري وشاكر حسن ورفاقهم ٠

وحين نلتقي بالفنان عطا صبري في تصريحه للاداب ١٩٥٦ نراه يؤكد « الواقعية الجديدة » في الفن العراقي الحديث فيقول :

« ٠٠٠ **ان انتاجنا الفني يجب ان يكون المعبر الحقيقي عن واقعنا الراهن فينبغي أن يعكس آلام الشعب وافراحه بمواضيع اجتماعية وشعبية ٠٠ ان الفن يتجه اليوم الى نوع من الواقعية الجديدة ، يمكن فيها تسجيل الحياة اليومية عندنا بلوحات معبرة رائعة ٠٠** »(٣٠)

ان جيل الرواد ٠٠ كان في موقفه الفكري ـ اجمالا ـ مع قضية حرية

الانسان ، مع العصر ، مع الحضارة ، وقد مارس هذا الموقف في أمرين هامين هما :

اولا : العمل على ايجاد فن عراقي له جذر تراثي وسمات قومية وانسانية ٠

ثانيا : العمل على اخراج الفن من « قوقعة » اللامضمون الى حيث الشكل المعاصر المضمون التقدمي ٠

ونحن عندما اعتبرنا بداية الفن العراقي الحديث ، ومطلعه من منتصف القرن العشرين ٠٠ اي من الخمسينات ٠٠ وابتداءا من جواد سليم ومحمود صبري ورفاقهما ، انما انطلقنا في تقيمنا للحركة الفنية لا من مجرد بدء نشوئها ٠٠ ولكن من بدء تطورها باتجاه معاصر ، وبذلك فنحن نختلف مع الدكتور خالد الجادر الذي يقول :

« بوسعنا ان نؤرخ بدء الفن المعاصر في العراق بفترة ما بعد الحرب الاولى ٠٠ اذ كان اول الرساميين ضابطا في الجيش العثماني في العراق هو عبدالقادر الرسام الذي اهتم بشكل خاص بنقل الطبيعة نقلا حرفيا »(٣١) ٠

ثم يربط تاريخ بدء الفن المعاصر بالبعوث الفنية الى خارج العراق في الثلاثينات ٠٠ وبمجيء بعض الرسامين البولونيين مع جيوش الحلفاء في بداية الاربعينات ٠٠٠ حيث يقول :

« وبذروا بذرة الفن الحديث لاول مرة في العراق »(٣٢) ٠

« ثم يقول الدكتور الجادر عن تلك « البداية » ما يفقدها جدواها :

« ٠٠٠ واستمرت عجلة التطور بسيرها الطبيعي والشعب يغلي دون ان تساير غليانه قواه الفنية من الفنانين كما ينبغي نظرا لحداثة عهدها بالفن وقلة وعيها »(٣٣) ٠

وعلى الرغم من اختلافنا مع الدكتور الجادر في تاريخ بداية الفن العراقي المعاصر ٠٠٠ فاننا نؤكد ان الدكتور الجادر نفسه هو احد رواد « البداية الحقيقية » للفن العراقي الحديث ٠٠٠ بموقفه الفكري التقدمي الواضح المعالم وبما اسهم به في الحركة الفنية العراقية الجديدة ٠

ان جواد سليم كان مؤسس المدرسة العراقية الحديثة في الفن العراقي المعاصر ، كما ان محمود صبري كان رائد الموقف الفكري ، رائد الواقعية الاشتراكية في الفن العراقي المعاصر ، ومنهما ومن جيلهما ، ومن رفاقهما الرواد كانت البداية الحقيقية ٠

- ٣ -

وبعد ان انتصرت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ المجيدة ٠٠ تفجر الوعي الثوري التقدمي ٠٠ الذي جسده ، بشكل خالد ورائع الفنان جواد

سليم بنصب الحرية ، وبذلك ازداد موقف الفنانين العراقيين وضوحا وعمقا وشمولا • لقد كان الفن مع ثورة الشعب ••• انه ابنها البار وحامل همومها واحزانها والحالم بميلادها •

ومع الثورة ، انطلق ، مع الاحرار ، من سجون حلف بغداد ، «سجين» جواد سليم « المجهول » •• وانطلقت « ثيران » طارق مظلوم الهائجة وخيوله الجامحة من عقالها مستبشرة بثورة الشعب التي كانت امل ريفنا الحزين ، وسار « عمالقة » بغداد ••• وبدأت تماثيل محمد غني حكمت وخالد الرحال تغني « المستقبل » و « الامومة » • لقد كان موقف الفنان العراقي ، فكرا وقلبا وضميرا ، مع الثورة ، مع الشعب ، مع الامة العربية ، مع قوى السلم والتحرر والاشتراكية في العالم •

وكان معرض « الثورة » الذي ساهم فيه معظم الفنانين •• «تظاهرة كبرى » عبر ، بها ، الفن العراقي الحديث ، عن موقفه الى جانب الشعب والانسان والحضارة •

ورغم كل ما كان عليه معرض « الثورة » من « طابع الاستعجال والسطحية نظرا للسرعة التي اكتنفت ظروف المعرض(٣٤) على حد تعبير الدكتور خالد الجادر ، فان مضمونه الثوري التقدمي والمواضيع التي تبناها الفنانون فيه ، وحرارة حماسهم التي مارسوا تنفيذ أعمالهم ، كل ذلك ، يؤكد ان المساهمين قد اكدوا موقفهم الفكري ـ من خلال اعمالهم الفنية ـ بشكل واضح وجماهيري لم يسبق له مثيل في تاريخ الحركة الفنية العراقية •

ثم سار الزمن حزينا ••• ،
وامطرت السماء ، من جديد ، دما ودموعا ،
وساد الحركة الفنية « ذهول » وصمت ••• ،

ولكن « عملاقا » آخر ••• كان يعمل ليل نهار ••• ليشق الذهول والصمت •• بمعرض « ملحمة الشهيد » •• انه الفنان كاظم حيدر •• الذي اعاد للموقف الفكري في الفن العراقي الحديث ـ بعدما اصابه شيء من القلق والتبلبل ـ سمته الثورية التقدمية • ان «ملحمة الشهيد » كانت علامة مضيئة على طريق الفن العراقي المعاصر •

لقد كانت « ملحمة الشهيد » بخيولها وسيوفها واقمارها وسماواتها وقتلاها وخيامها المحترقة وسباياها وانسانها المذبوح والمقطوع اليدين تمثل مأساة الشعب العراقي •

ان « شهيد » كاظم حيدر ••• كان شعب تموز الذي ثار ليعيش فرحة الانتصار ، لا حزن وخيبة المعاناة •

لقد اكد الفنان ـ الرائد الجديد ـ كاظم حيدر ، بمعرضه ، ان الفن

العراقي كان يعيش فرح الثورة ومأساة الانسان في ذات الوقت ، كما اكد ان هوية الفن العراقي المعاصر ، رغم الذهول والصمت والتمزق والخيبة ، هوية انسانية وان موقفه الفكري والحضاري موقف تقدمي معاصر واصيل .

فلو تساءلنا :

ـ بماذا كانت تحدثنا صور كاظم حيدر .. فنان الطيبة والنقـــاء والالم الانساني ؟

ـ والى ماذا كانت ترمز خيوله .. وماذا كانت تقول ؟

ـ وبماذا كانت تحلم اقماره الحمراء ، الزرقـــاء ، الســـوداء ، الخضراء ؟

ـ من القاتل ؟ ومن الشهيد ؟ ولمن النصـر الحقيقـي والخلـود الابـــدي ؟

ـ تساؤلات لم يخرج انسان من معرض « ملحمة الشهيد » الا وكانت تنبض في قلبه وتدور في عينيه !

(٤)

وفي حزيران ١٩٦٧ ،

حلت الكارثة ،

لكن الفن العراقي الحديث لم ينهزم ، بل كان يحزن ويفكر ،يتألم ويحلم ، يتمزق ويعاصر ٠

الامة العربية انهزمت ٠٠ لكنها لم تمت ،

الشعب في العراق ٠٠ بعماله وفلاحيه وجنوده وكادحيه ومثقفيه الثوريين ٠٠ كان يتفجر غضبا واصرارا على الاستمرار في القتال حتى النصر او الموت ،

شعب ١٤ تموز ٠٠ يرفض الهزيمة ٠٠ ويرفض الاستسلام ، الفدائيون يحملون على رقابهم امل الامة العربية بالنصر والعودة ٠

الشهداء يصرون على الموت ٠٠٠ دفاعا عن شرف الانسان العربي وعن حقه المغتصب وارضه المحتلة ٠

الارض والسماء ، الهواء والماء ، وكل شيء في بلادنا يتفجر غضبا ويلتهب حماسا ٠

في مثل هذا الواقع ، لم يعد ، من المحتمل ، ان يعيش فنان بلا « **موقف فكري** » محدد وحاسم ٠

في النار ٠٠٠ الا يمكن ان تتحول الفرشاة الى « **زهرة حب** ٠٠٠» وانما الى « **عنقود غضب** » !

في أعقاب المعركة الخاسرة ، وبانتظار معركة منتصرة ، لا يمكن للازميل الا ان يصير سكينا !

المأساة التي تجاوزت حدود الوطن العربي لتصبح ، مأساة العصر ، لا يمكن ان يعيشها الفنان بعيدا عن العصر ، بعيدا عن ثورة العصر ... بعيدا عن الاساليب الجديدة التي تحمل طابع الانسان في محنته وتأزمه وعنفه .

فالطاعون عندما ينتشر ،
والمدنية عندما تحترق ،
والشمس عندما تسقط في بحر الحزن الاسود ،
لا يستطيع الفنان المعاصر ان يسير ، خطوة واحدة ، مغمض العينين ، بارد القلب !

وخلال الدخان واللهب ، خلال الدم والدموع تواجدت لدى الفنان العراقي في عينيه وفي ضميره « المعادلة » الرهيبة التالية :

الامبريالية + التكنولوجيا + الفكر الرجعي + الجمود والتخلف + التأمل الحالم المجرد + الخيانة = الهزيمة ....

وتعني الموت حتما !

وادرك الفنان العراقي المعاصر .. بوعيه وحسه الاصليين ان اسقاط تلك « المعادلة » في الفن لا يمكن الوصول اليه الا عن طريق « الثورة » .. من هنا ، انبثق ، بعزم اشد ، جيل آخر ، عمالقة جدد ادركوا « مغزى معادلة الهزيمة » ... ووجدوا حلها في اعماقهم وفي اعماق العصر .

وبروح الصمود بوجه عاصفة هوجاء ، وبروح الانتفاض على واقع العدوان وبروح التوتر والتوثب والشوق للقاء نداء المقاومة ، وبروح استلهام المستقبل ، المستقبل الذي يطل من خيمة لاجئين مشردين كادحين ، تلك الروح تجمع فنانون عراقيون شباب ... تلتهب صدورهم حماسا وتمردا وتقوم عيونهم حزنا وغضبا .. واعلنوا عن « موقف فكري » ثوري تقدمي .. جسدته صور وتماثيل معارض « المعركة » .. تلك المعارض التي اكدت أمتداد جذور الثورة الفلسطينية العربية الى ضمير الحركة الفنية العراقية المعاصرة .. وامتداد نار حركة المقاومة الى قلبها . كما اكدت مشاركة الفنانين العراقيين في القتال عن طريق الفن .. وتجاوزهم « جراح » الهزيمة الى عنف « المعركة » ...

لقد كانت صور حميد العطار « **الشهيد ـ اغتيال** ...» وضياء « **من تأكلنا الغربان** » ومحمد مهر الدين « **شمس وضحايا** » ، وتماثيل صالح القرغولي « **الخيمة والثور** » وغيرها من الصور والاعمال الفنية التي تضمنتها معارض « **المعركة** » الخمس ، موقفا ، عبر ، خلاله ، فنانون عراقيون معاصرون ومخلصون .. عن ايمانهم المطلق بالثورة وبحتمية انتصار الانسان العربي في صموده وفي مقاومته للعدوان الصهيوني ـ

الامبريالي • ان معارض « **المعركة** » ستظل شرفا عظيما لمن شارك فيهـا وللفن العراقي الحديث •

ومع تصاعد حركة المقاومة ،
ومع تعاضم الثورة ،

تصاعد حسن الفنان العراقي المعاصر وتعاضم وعيه ، وبدأ يبحث عن « رؤيا جديدة » للفن العراقي الحديث •

ان الفنانين العراقيين الذين مزقت اسماعهم نداءات واناشيد وهتافات الجماهير الثائرة المقاتلة لاسترداد الارض والكرامة • أصبحوا ازاء مضامين جديدة ، ومعاصرة ؛ لذا فهم ملزمون « بتحطيم الاشكال القديمة وتدميرها بعنف(٣٥) لايجاد اشكال جديدة اخرى ؛

وبذلك فقد ادركوا ، بوعي الثورة ، ما كان يقوله « بريتون » : « ••• لا يكون للعمل الفني قيمة الا اذا كانت تجري في انحائه خيوط المستقبل(٣٦) ، كما ادركوا كذلك ان وظيفة الفن « ••• ليست ـ ان يدخل الابواب المفتوحة بل ان يفتح الابواب المغلقة »(٣٧) •

لقد ولد ، من خلال حرب حزيران ١٩٦٧ وثورة المقاومة ، جيل آخر •• راحوا يعيشون المأساة •• كما عاشها » هملت :

فهم يحبون «القتيل» العزيز ويريدون الوفاء له ،
وهم يعرفون « القاتل » ويريدون الانتقام منه ،
وهم يعرفون « الخائن » ويريدون عقابه ،
وهم يعرفون جدوى « الجريمة » وما يكمن وراءها •

ولكنهم كما كان هملت يدورون حول القتلة ، بحثا عن مزيد من الكشف والتجاوز ••• بدافع شك بررته الخيبة بالقيم والمضامين والاساليب والمدارس التي ما عادت مجدية في عصر التقدم التكنولوجي المذهل ••• عصر المأساة والحلم والتحول •

انهم يبحثون عن « الرؤيا الجديدة » •• لنستمع لهم ماذا يقولون :

« ••• **ان الوعي المعاصر ما هو الا عملية اكتشاف لذات الانسان ولذات الحضارة ••• الفن ممارسة موقف ازاء العالم وعمليـة تجاوز مستمرة واكتشاف لداخل الانسان من خلال التغيير ••• وهو رفض عقلي لما موجود خطأ في تركيب المجتمع •••**

وبهذا يكون الرفض والتمرد ملازمين لعملية الابداع المستمرة • الفنان محارب يرفض ان يلقي سلاحه عندما يجد نفسه ناطقا باسم العالم وباسم الانسان وهو يحيا بتضحية دائمة ازاء عالمه معبرا بذلك عن رغبة حادة في رفض اقنعة الزيف • ان وحدة النتاجات عبر التاريخ تصنع الفنان في مركز العالم وفي بؤرة الثورة •

الفنان ناقد وثوري • ان حضور الثورة يتجه به الى روحية الفنـــاء والتضحية • فالجديد له رؤياه الخاصة وصوته انخاص والتوحـــد معه لن يأتي الا عن طريق مخاطبة خلال تلك الرؤيا وذلك الصوت • نحـــن المطالبون دائما بالتحدي والمواجهة لـــكل ما يهدد الـوطن من اخطـــار نعيش وسط دوامة الزحوف العسكرية للنازية الجديدة • مهددون دائما بـوجودنا • نعمل من اجل التركيز والمناداة بفن طليعي يجمع الى جانب هدفه الانساني رؤيا فنية جديدة • فلنكن طليعة التحدي ، لاننا نريـــد ان نكون فنانين نحمل روح الوطن والبشرية كونوا معنا لنوحد الرؤيـــا الجديدة للعالم ، نمنحها عنف وتمرد الشباب ، نحن الجيـــل المطالب بالتغيير والتجاوز والابداع ، لن نتراجع• حرية التعبير هي حريـــة الثورة • الفن روح المستقبل •الشارع لا قاعة المتـــاحف • نرفض العلاقات الاجتماعية الحاملة لاقنعة الزيف • نتحدى العـالم • نرفـــض الهزيمة العسكرية والفكرية لامتنا • ونمجد حرب التحرير الشعبية في صدور الشهداء ، الثورة تجاوز • وبلورة لروح المستقبل • الثورة صانعة الانسان الجديد ، والفن وجه ذلك الانسان • الثورة والفـــن عطاءان ملازمان لتطور البشرية • ممارسة الفن رهن بممارسـة الانسان لجوهره الانساني • الثورة هي الفن المســـتقبلي المدهش والمحقق للرؤيـــا الجديدة »(٣٨) •

كان لابد لنا ان نستشهد بجميع ما اقتطفناه من « **بيـان ثـــورة** » اسماعيل فتاح الترك وصالح الجميعي وضياء العزاوي ورافع الناصري ومحمد مهر الدين وهاشم سمرجي ، تلك الثورة التي كانت البديل للتأمل الميتافيزيقي وللهروب الى سماوات الحلم ، كما كانت الرد الحاســـم على هزيمة حزيران ، وعلى الجيل الذي يتحمل مسؤوليته في الهزيمة !

البيان موقف فكري ثوري تقدمي ،
البيان رفض قاطع للهزيمة في الفن والحياة ،
البيان عناق حار للعصر ،
البيان ثورة على الواقع وتجاوز الى المستقبل •

وبروح ثورة العصر ، يقدم لنـا اسماعيـل فتـاح في «**رجل وكرة**» الانسان سيد الكون يتربع على عرش العالم ، وينظر الى الاعماق المجهولة للزمن ، ليس في العالم الا الانسان ، الا صانع الثورة •

ويقدم لنا صالح الجميعي في «**انسان معاصر**» وجه انسان **عصـرنـا** الصامد ازاء قسوة الامبريالية وفولاذها بعينين اكلهما الارهاق والالـــم واثقلتهما المعاناة والتجربة وعذاب الصمود ••• ولكنهمـــا ما تزالان تتحديان ظلم الواقع المتأزم وتتجاوزانه الى المستقبل الموكد •

ويقدم لنا ضياء العزاوي في « الشهيد » صورة تحمل من تراثنا بقدر ما تحمل من استشهاد انسان عصرنا .. هذا الانسان الذي ما يزال معلقا على صليب الصراع .. والمذبوح بسيف ملحمة القتال الرهيب بين الامبريالية والاشتراكية على ساحة عصرنا ، حيث ترتفع في الافق رايتان مختلفتا الاتجاه لعالم منقسم الى معسكرين !

ويقدم لنا رافع الناصري في « المربع البرتقالي » حس الانسان في معايشته لمجتمع القسوة ، مجتمع الصرامة التكنولوجية وقسوة العمل المنظم، بين المعامل والمناجم وخنادق القتال . وخلال حزن الغربة والتمزق والخوف والجريمة ، شوقه البريء الوضيء لشمس اخرى ... لشمس الحب والحرية والثورة .

ويصرخ ، عنا ، وعن جميع المعذبين في الارض ، عن جميع المذبوحين بسكاكين الغدر والخيانة . في صورته « تعذيب ... تعذيب.. ثم قتل». حديد وآلات موت وانسان يتمزق . ذلك هو وجه الواقع المفجع في ظل حكم الامبريالية والصراع الطبقي . الانساني العظيم يتحول الى «حطام» كما في صورته الاخرى .

ويقدم لنا هاشم سمرجي صورة العالم المخطط والمقطع والمنقسم

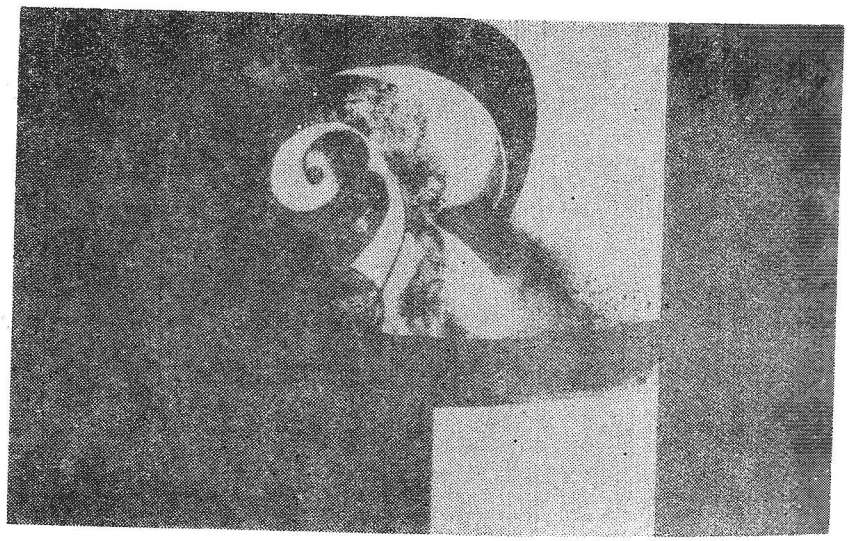

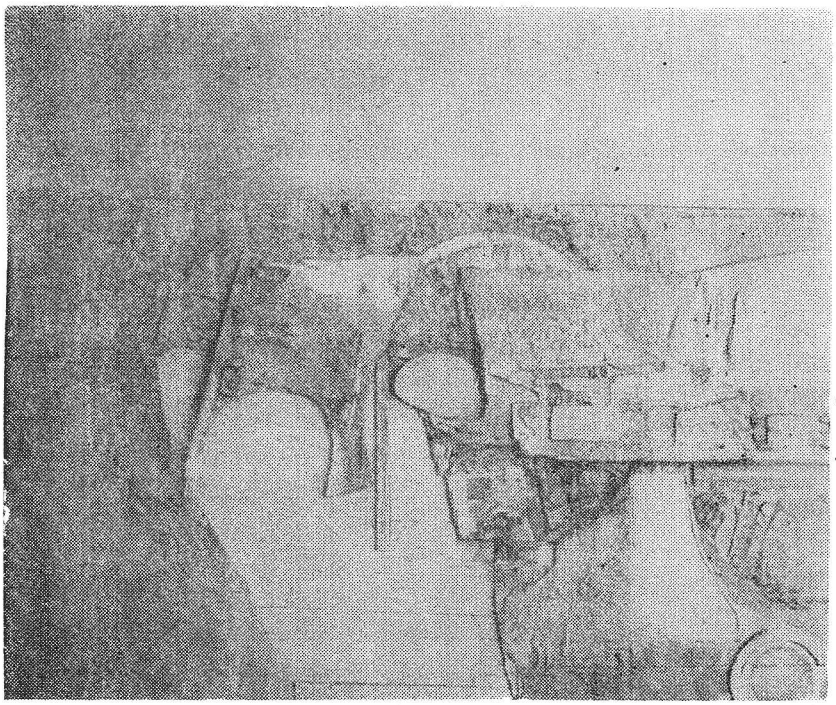

« عشتار »

بانتظام شديد • كل شيء ممزق بخنجر اســـطوري رهيب : الارض والشمس والانسان •

ان في كل خط ،

وفي كل نقطة لون ،

انسانا يصرخ ، يتمزق ، يستنجد ، يثور ، يقاتل ، يمـــوت • ولكنه لن يلقي السلاح ابدا •

تلك هي « **الرؤيا الجديدة** »!

وهؤلاء هم قارعوا اجراس الثورة في الفن العراقي الحديث •

انهم طليعة الموقف الفكري الثوري في الفن العراقي الجديد ، فـــن المستقبل •

وازاء هذه الثورة ، ما تزال تنتظر ان يتجاوز فنان «**ملحمـــــة**» جديدة •

اما الاخرون ،

رواد الامس ،

« فمنهم من قضى نحبه •• ومنهم من ينتظر •• وما بدلوا تبديلا»!

•• ولكن رياح عصرنا •• لا يمكنهـــا ان تحتمـل بقـاء «الجثث» معلقة على أبواب المتاحف والاكاديميات طويلا ••• واذا كان الموت

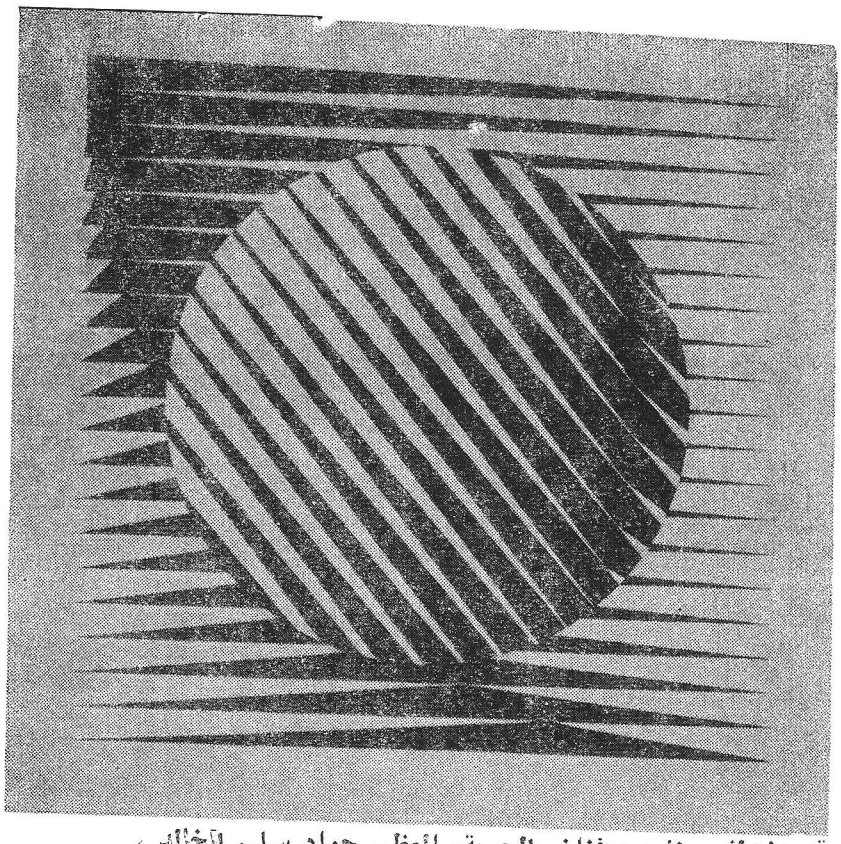

قد اختطف منا ٠٠ فنان «الحرية» العظيم جواد سليم الخالد ،

واذا كانت الغربة ، قد ابعدت عنا رائد الواقعية الاشتراكية في الفن العراقي الحديث محمود صبرى ،

واذا كانت التجارب اللونية وعبادة التكنيك الفني قـــد حولتا « فائق حسن » الى مجرد بائع صور جميلة ومتقنة وغنيـــة باكاديميتها وصنعتها ،

واذا كانت الزخارف والحروف والمتاهات الفكرية والدوران حـــول ذات المضامين القديمة قد حولت آخرين الى مجرد رسامين بلا عصر ،

واذا كانت الاعمال « الآثارية » قد حجبت عنا « ثيران » طارق مظلـوم الهائجة ونساءه الحالمات بالحب المفقود ،

فان جيلا جديدا ،

جيل رواد جدد ،

سيحمل راية الفن العراقي الحديث ٠٠٠ ويطوف بها العالم ٠

ملاحظـــة :

ان مقالنا هذا ليس الا مقدمة لدراسة الموقف الفكري للفن العراقي الحديث • فهو لم يستوعب الحركة الفنية المعاصرة في العراق بأكملها ، كما لم يتعرض للكثير من الفنانين ، ليس لعدم أهمية أعمالهم أو أفكارهم ، ولكن بقصد مجرد اختيار أمثلة ونماذج دالة وحسب ما توفر لنا من مصادر • فمعذرة لمن لم يرد ذكره • ولعل غيرنا سوف تحفزه هذه المقدمة لاكمال البحث بشكل أكمل متابعة وأكثر اختصاصا •

المصـــادر :

(١) جوجان الفنان الثائر ـ لطفي محمد زكي ص٦٢ •
(٢) ارنست فيشر ـ ضرورة الفن ـ ترجمة سمد حليم ـ ص١٤٣ •
(٣) جوجان الفنان الثائر ص ١١ •
(٤) نفس المصدر ـ ص١٣٥ •
(٥) ماركسية القرن العشرين ـ غارودي ـ ترجمة نزيه الحكيم ص ٢٢٥ •
(٦) ارنست فيشر ـ ضرورة الفن ص ١٤ •
(٧) ماركسية القرن العشرين ـ غارودي ـ ص ٢٣٥ •
(٨) ماركسية القرن العشرين ـ غارودي ـ ص ٢٠٧ •
(٩) واقعية بلا ضفاف ـ غارودي ـ ص ٢٢٦ •
(١٠) واقعية بلا ضفاف ـ غارودي ـ ص ٢٢٥ •
(١١) واقعية بلا ضفاف ـ غارودي ـ ص ٢٢٧ •
(١٢) واقعية بلا ضفاف ـ غارودي ـ ص ٢٢٩ •
(١٣) ضرورة الفن ـ فيشر ـ ص ٤٣ •
(١٤) هربرت ريد ـ معنى الفن ـ ص ٧٨ •
(١٥) هربرت ريد ـ معنى الفن ـ ص ٢٩٦ •
(١٦) جمهوريت الصمت ـ سارتر ـ ص ٩٩ •

(١٧) ضرورة الفن ـ فيشر ـ ص ٥٢ ٠
(١٨) اندريه مورا ـ جمهورية الصمت ـ ص ٩٩ ٠
(١٩) فن وجمهور ـ محمود صبري ـ الثقافة الجديدة عدد ١٢ ـ ١٩٥٣ ص ٥٥ ٠
(٢٠) الآداب عدد ١١ ـ ١٩٥٣ ص ٥٥ ٠
(٢١) نفس المصدر ٠

(٢٣) نفس المصدر ٠
(٢٤) الاداب عدد ١ سنة ١٩٥٦ ٠
(٢٥) نفس المصدر ٠
(٢٦) نفس المصدر ٠
(٢٧) نفس المصدر ٠
(٢٨) نفس المصدر ٠
(٢٩) نفس المصدر ٠
(٣٠) نفس المصدر ٠
(٣١) نفس المصدر ٠
(٣١) لمحات عن الفن في العراق ـ خالد الجادر ص ٥٢ ٠
(٣٣) نفس المصدر ص ٥٣ ٠
(٣٢) نفس المصدر ص ٥٣ ٠
(٣٤) نفس المصدر ص ٥٤ ٠
(٣٥) ضرورة الفن ـ فيشر ص ١٧٨ ٠
(٣٦) ضرورة الفن ـ فيشر ص ٢٧٠ ٠
(٣٧) ضرورة الفن ـ فيشر ص ٢٧٦ ٠
(٣٨) نحو رؤيا جديدة ـ اسماعيل فتاح ـ ضياء العزاوي ـ محمد مهرالدين ـ صالح الجميعي ـ هاشم سمرجي ـ رافع الناصري ٠